ملف خاص

عبدالله بلخير
شاعر الملاحم الإسلامية الطوال

بقلم
د. أحمد عبدالله السومحي*

عرفت الشاعر الإسلامي عبدالله عمر بلخير مرتين، الأولى عندما كنت طالبا في السنة الرابعة الابتدائية بمدرسة أولاد البادية بمدينة المكلا بحضرموت في أواخر الخمسينيات، فقد كان مقررا علينا في هذه السنة من ضمن مقرر المحفوظات نشيده الشهير (شبه الجزيرة موطني وبلادي) التي انطلقت من مكة المكرمة واختارتها فرقة الكشافة بالعراق نشيدا لها وطرب لها طلاب المدارس في بلدان الجزيرة العربية فهتفوا ينشدونها.

* أكاديمي يمني من حضرموت، أستاذ مساعد بقسم اللغة العربية ، كلية الآداب بجامعة الملك عبدالعزيز بجدة.

والحقيقة أن هذا النص قد استرعى انتباهي وملك مشاعري وأحاسيسي من بين النصوص الشعرية المقررة الأخرى في تلك السن الباكرة، ولم يكن ذلك الإعجاب لكونه يتفجر بالحس الوطني والشعور القومي فحسب، وإنما لرصانة أسلوبه وجودته.. . ولم يخطر ببالي سنة ١٩٥٨م أن عبدالله بلخير رجل نابه الصيت واسع الانتشار يحتل منصبا رفيعا في الدولة السعودية.. وظل هذا التصور يلازمني إلى أن هبطت الحجازسنة ١٩٧٨م وأنا أرددها معه قائلا:

شبه الجزيرة موطني وبلادي
من حضرموت إلى حمى بغداد
أشدو بذكراها وأهتف باسمها
في كل جمع حافل وأنادي

أما المرة الثانية فقد عرفته شاعرا مبدعا رقيقا في مدينة جدة حين كنت ألتقي به في منزله الرسمي بجوار مطار جدة القديم ثم في منزله الخاص بحي الأندلس في جدة الجديدة، ففي كل مرة كان يسمعني بعض روائع قصائده، وتوطدت بيننا العلاقة الأدبية، وفي كل زيارة كنت أكتشف عبدالله بلخير الشاعر لا السياسي أو الإداري. فهو إن لم يسمعني شعره فقد كان يطربني بنماذج من الشعر العربي الجيد من التراث، أو من شعر العصر الحديث أو الشعر الشعبي، وإذا لم يفعل ذلك فهو يحكي القصص الطريفة العميقة الشاعرة سواء كانت من التاريخ العربي القديم أم من العصر الحديث من ذكرياته ورحلاته ومشاهداته، وفي كل أقواله نغمة شاعر .. في طريقة حديثه، في أسلوبه، في خياله.. فهو رجل شهي الحديث يستهويك بأسلوبه، ويستحوذ على ذهنك وأحاسيسك فتحلق معه في عالم الخيال والسحر البياني، وهذا ما ترك في نفسي انطباعا بأني أجلس أمام أديب يجيد صوغ الكلام واسع الأفق المعرفي، وتلك ميزة ربما لم تتوافر لكثير من الأدباء. وقد جعلتني هذه الصلة قريبا من الشاعر، حيث اقترنت صلة الإعجاب القديمة بصلة المعرفة الجديدة فكونت فهما معرفيا عاما وقراءة مفتوحة لشخصيته وثقافته ورؤيته.

المتتبع لشعر عبدالله بلخير يجد أن في شعره ظاهرتين وميزتين وحالتين : أما الظاهرتان فتبرز إحداهما في الاتجاه الوطني القومي الذي التزم به الشاعر في شعره، وهو خط واضح وضوحا جليا حيث ملكت عليه هموم قومه جل اهتمامه .. فدعا إلى النهوض وإلى الوحدة والترابط والتكاتف، كما استخرج العظة والعبرة من الماضي التليد فصور الأمجاد الإسلامية وبعث التاريخ من مرقده لعل هناك من يسمع .. وكانت دموعه تسبق كلماته وهويقرأ عليك قصائده المستنهضة والباعثة.

أما ثانيتهما فتتجلى في القدرة على استحضار التاريخ ومعالجته فنيا .

أما الميزتان فتظهر إحداهما في قوة الأساليب ورصانتها وجودة التصوير وقوة التخيل، وتبرز ثانيتهما في طول النفس الشعري مع الالتزام بالوزن والقافية ووحدة الموضوع والترابط العضوي مهما طالت القصيدة.

وأما الحالتان فتبدو إحداهما في ظهور شاعرية بلخير مبكرة قوية ثم صمتت هذه الشاعرية عقودا من الزمن .. وثانيتهما عدم تأثر بلخير بالثقافات الأجنبية مع العلم أنه يجيد الإنجليزية، لهذا لم نلحظ أي تطور على هذه الشاعرية، فليس هناك فرق بين شعره قبل الصمت وبعده.

ويبقى بعد ذلك أن نعرف أن بلخير كان محبا لبلاد الأندلس معجبا بحضارتها الفكرية، فكثيرا ما كان يحدثني عن علمائها وشعرائها وأدبائها.. وكان يروي تلك الروايات بخيال الشاعر لا بواقع التاريخ، فكان يفهم ذلك العصر فهما شعريا لا فهما تاريخيا، فهو عندما يحدثك عنه لا يحدثك عن تاريخ العرب والمسلمين الذين عاشوا في هذه البقعة من الأرض، وإنما يحدثك عن الحركة الاجتماعية والأدبية والفكرية، ويصور لك دورها الحضاري في هذه الأرض وكأنه عايشها ويجعلك تعايشها .. وفي حديثه عنها ينطق شعرا، وفي شعره يحرك التاريخ البعيد أمامك فتشعر وكأنك في دار للخيالة.

شخصيته وثقافته:

الشاعر عبدالله بلخير رجل ربعة لا هو بالطويل ولا بالقصير ممتلئ الجسم. فإذا التقيته فإنك تواجه إنساناً قوي الشخصية حاد النظرات ذكيا لماحا وقورا متحفظا في كلامه، ومع ذلك فهو جذاب، إذا تحدث يستهويك بكلامه فهو متحدث لبق على محياه مسحة حياء مع طيبة

يختفي خلفها شيء من الدهاء بحيث يكون أحيانا منفتحاً تحس أنه قريب منك يمتزج فكره بفكرك وروحه بروحك، وفجأة تجده غامضا بعيدا عنك وما ذلك تقلبا منه، ولكنه الانضباط الفكري والسياسي والالتزام الشخصي تجاه قضايا معينة .. فهو يضع لكل شيء حدوداً ومقاييس .، بعيد النظر في الأمور، لأنه سياسي محنك على غير ما يتصف به الشعراء من الانفعال والعاطفة.

كان يحب الحياة ويقبل عليها واستمتع بها أيما استمتاع، فقد طاف العالم أكثر من مرة ورحل في شتى أنحاء الأرض ويملك منازل في أجمل بقاع العالم في القاهرة وبيروت وماربيّا في إسبانيا .. وغيرها.

ذلكم هو الشاعر والعروبي الإسلامي عبدالله بلخير الذي أخذ بأسباب العلم والتعلم المنظم وأخذ بأسباب الثقافة العميقة، والدراسة المستفيضة.

وشاعرنا عبدالله بلخير رحمه الله قد فطره الله على معرفة الشعر والتعلق به منذ نعومة أظفاره.. فقد حكى لي أن والده كان يصطحبه معه إلى الأفراح التي تقام قريبا منهم وهو ما زال طفلا صغيرا في حضرموت، وكان دائما يتشوق إلى حضورها لا لشيء إلا رغبة بسماع الأشعار الزوامل.. وكان يحفظ كثيرا من أشعار (الزامل) وهو ضرب من فنون الأناشيد الشعبية الحضرمية ويرويها عن ظهر قلب مع أحداثها ... وما كان يرويه من النوع الذي يسمى البدع والجاب في المصطلح الشعبي الحضرمي بحيث يقول الشاعر بيتا أو أبياتا فيقوم الشاعر الآخر بالرد عليه على نفس الوزن والقافية ونقض المعنى، وهو شيء يشبه النقائض في الشعر العربي الفصيح.. وكان يردد هذه الأشعار إعجابا بها وهو أمر يدلنا على تنبه الحس الشعري مبكرا عند الشاعر.

وقد غذى الشاعر هذه الموهبة بالثقافة بعد نزوله إلى الحجاز والدراسة بها، كما كان لاحتكاكه بالحياة العامة وفهمه للبيئة واتصاله بالتراث الشعري وثقافة التنوير المعاصرة أثر عميق في بدايات بلخير الشعرية القوية.

أما التجربة فإنها تتمثل في فهمه لأحداث العصر والوعي بها واستيعاب المستجدات والتفاعل معها من خلال الإحساس بها .

ولنا بعد هذا أن نقول: إنه على الرغم من هذا البوح فان الشاعر بلخير لم ينقطع عن الشعر ولو عن طريق القراءة، فشاعر يكتب قصائد تصل إلى ثلاثمائة بيت وهو في الثمانين لا بد من أن يكون شاعرا عبقريا يعشق الكلمة ويعكف على قراءتها.

ولأننا أمام شاعر مجيد تتعدد جوانب شعره فحسبنا أن نتناول من هذا الشعر جانبين نراهما مهمين في الرؤية الشعرية عند بلخير وهذان الجانبان هما : البعد الوطني الإسلامي والبعد الوجداني .

البعد الوطني الإسلامي:

نشأ عبدالله بلخير في ظروف اجتماعية وسياسية ودينية في غاية الدقة. فقد وافقت نشأته انتهاء الحرب العالمية الأولى، وانحسار الخلافة العثمانية، وقيام دولة آل سعود، وقد نتج عن هذه الظروف استيقاظ الشعور القومي والانتماء الوطني والنقاء الديني حيث كانت دعوة التوحيد تشق طريقها بقوة لتخلص الحياة الدينية مما علق من شوائب البدع والأباطيل على يد الملك عبدالعزيز – يرحمه الله– كما كانت الأوضاع السياسية في داخل الجزيرة العربية تتكون تكونا جديدا في هذه الحقبة المباركة وأخذت الظروف الاجتماعية والثقافية والاقتصادية تتغير.

لهذا فقد كان تكوينه الفكري مزيجا من الشعور القومي والإحساس الوطني والتجديد الديني والفهم السياسي، أضف إلى ذلك تكوينه الثقافي والمعرفي البيئي، فمجتمع مكة مجتمع محافظ ملتزم، والنظام الحاكم محافظ ملتزم دينيا وسياسيا وقوميا.

ومن هنا فإن هذا التشكيل لشخصيته وذهنيته يستعر حماسة، ويتأجج ثورة، فكانت انطلاقته الشعرية تفتح أمامها ملفات هذه القضايا: الوطن، الوحدة،

الإسلام، العروبة.... إلخ. وأول ما لفت انتباهه وهو ما زال طالبا أن وطنه المملكة العربية السعودية بدون أناشيد وطنية وهو أمر له خطورته على النشء فكتب ما يقرب من خمسة عشر نشيدا وطنيا وقدمها إلى لجنة المسابقات التي اختارت ثلاثة عشر منها وأقرتها ثم عممتها على المدارس بالمملكة، وكانت أفكارها تدور حول سبل النهوض بالوطن. ونحن نجتزئ هذا المقطع تثبيتا لما ذهبنا إليه:

يا شباب العرب مهلا
زمن القول تولى
وهلال الجد هلاْ
وأتى دور العملْ
نحن في عصر جديدْ
نحن في عصر الحديدْ
فلنعد ماضي الجدودْ
بجهاد وأملْ

ثم إنه إلى جانب ذلك أخذ يرصد الأحداث الجسام، ويصور المواقف المهمة. فما من مناسبة وطنية أو قومية إلا انتصب فيها منشدا أرقى المعاني في أشرف اللغات أنصت إليه يقول محييا وفد الكشافة العراقي الوافد إلى مكة سنة ١٣٥٣هـ :

شبه الجزيرة موطني وبلادي
من حضرموت إلى حمى بغداد
أشدو بذكراها وأهتف باسمها
في كل جمع حافل وأنادي
منها خلقت وفي سبيل حياتها
سعيي وفي إسعادها إسعادي
كل له فيمن أحب صبابة
وصبابتي في أمتي وبلادي
يا وحدة العرب التي نسعى لها
حتى نشيِّدها على الأعماد

فتأمل هذه المعاني الرائعة وتأمل هذا الأسلوب الرصين السلس الجميل الهادئ. فلقد فهم بلخير أن للشعر رسالة سامية، وعلى الشاعر أن يؤدي هذه الرسالة بهدوء لينصح قومه ويرشدهم لا ليطربهم، ولهذا كانت الدموع تسيل غزيرة من عينيه وهو يقرأ عليك ماضي العرب التليد في بلاد الأندلس من ملاحمه، وكان يفهم الشعر على أنه نصح عقلاني لا عنتريات وشعارات جوفاء تذهب أدراج الرياح فهو يقول:

يا وحدة العرب التي نسعى لها
حتى نشيدها على الأعماد

ويقول غيره :

شعب تشيده الجماجم والدم
تتهدم الدنيا ولا يتهدم

ويقول بلخير :

كل له فيمن أحب صبابة
وصبابتي في أمتي وبلادي

ويقول غيره:

هتفت بالشعر أستسقيه قافية
حمراء فانفجرت في أضلعي الحمم

من هذا يتبين لنا أن بلخير كان يميل إلى الأسلوب الهادئ في الطرح، كما أنه يميل إلى التلطف والوضوح في خطابه الشعري لا إلى الجلافة والتعقيد.

والدعوة في شعربلخير إلى وحدة الجزيرة العربية تقودنا إلى الحديث عن رؤيته لموحد الجزيرة العربية ومنقذها من الضلال الملك عبدالعزيز فهو يقول :

إلى الوحدة الكبرى يقود جموعهم
موحدهم عبدالعزيز المحبب

مليك له تاج بنجد مرصع
وعرش على أفق الحجاز مطنّب
تحف به منا القلوب ودونه
يلذ لنا الموت الزؤام ويعذب
إمام هدى حتم على الناس حبه
وطاعته فرض وشانيه مذنب
قد اختاره الرحمن للدين حارسا
ليحميه ممن بات بالدين يلعب

لقد جسد بلخير في هذه الأبيات كل روابط وحدة الأرض، ووحدة الإنسان، ووحدة الدين في شخصية الملك عبدالعزيز فهو موحد الجزيرة العربية من نجد إلى الحجاز ومن الجنوب إلى الشمال، ومن أجل ذلك فهو المفدى القريب إلى النفوس، فطاعته واجبة لأنه أهل لذلك، ولو لم يكن أهلا لذلك لما اختاره الرحمن لهذه المهمة، ولما وفقه إلى النجاح فيها.

ونحن نرى في هذه الأبيات ثمار الغرس الذي غرسته دعوة التوحيد، فهناك ترابط قوي بين الوحدة والتوحيد، وهذا ما يؤكده بلخير في شعره، سواء أكان ذلك بدا واضحا جليا للذهن، أم كمُن خلف حجاب شفاف من الرؤى الجزئية التي يطلقها الشاعر هنا أو هناك.

ويمضي الشاعر بلخير في هذا الاتجاه يؤكد أهمية وحدة الجزيرة العربية ويظل هذا الهاجس يلح عليه حتى بعد انقطاعه عن نظم الشعر مدة دامت ما يقرب من خمسين عاما، وحتى بعد أن بلغ من العمر ما بلغ، لهذا وجدناه في كثير من قصائده يؤكد ذلك. ولعل من هذه الإشارات ما ذكره في القصيدة التي تحدث فيها عن زلزال (ذمار)، ومن هذا القبيل ما جاء في قصيدة نشرت بجريدة الجزيرة سنة ١٤٠٠هـ:

متى يجمع الله الجزيرة كلها
على راية كبرى ترفّ وتخفق
جزيرتنا الكبرى منارة مجدنا
وعالم دنيانا التي نتعشق
ونؤمن إيمان النبيين أنها
لنا الوطن الأسمى به نتعلق

ومع عشق بلخير للجزيرة العربية وحبه لها فإن حبه لباقي الوطن العربي لا يقل صبابة عنها، وبالإضافة إلى ذلك فهو شديد الحرص على وحدة المسلمين والترابط بينهم، لهذا فهو لا ينسى أن يربط بين العروبة والإسلام فيقول:

ومشت مواكبها وأقبل جمعها
والله قائدها وأحمد هاد

وبلخير يحاول في شعره أن يكون مبشرا لا منفرا، ومجمعا لا مفرقا، فمن ذلك أنه حدثت جفوة بين حكومة مصر والمملكة العربية السعودية بسبب كسوة الكعبة، وحدث أن زار الاقتصادي المصري المعروف طلعت حرب المملكة على رأس وفد كبير فحياهم الشاعر بقصيدة، ومما جاء فيها:

وازدهت مكة بذلك حتى
غمر الأنس نجدها والسهولا
وهي إن تحتف بكم تحتف بالـ
ـمجد مجد الإسلام عرضا وطولا
لو مشت مصر نحو مكة شبرا
لمشت مكة إلى مصر ميلا

والملاحظ أن الشاعر في خطابه لم يكن حادا ولم يعاتب، وإنما مس الموضوع مسا خفيفا من خلال الإشارة إلى الخلاف، وبالإضافة إلى ذلك فقد خاطبهم بأجمل الألفاظ وأنصع المعاني.. وانظر إلى هذه التعبيرات (ازدهت) و (غمر الأسى) و (تحتفي) لتقف معي تقديرا لشاعرية بلخير الفذة التي تسعى دائما إلى لم الشمل ودمل الجراح والتقريب بين الأشقاء.. وإني لأكثر إعجابا بهذا البيت الذي كان بلخير أيضا معجبا به، وكان يذكره دائما عند الحديث عن بداياته الشعرية :

لو مشت مصر نحو مكة شبرا
لمشت مكة إلى مصر ميلا

فهو يجسد روح التسامح والتحاب، ويمثل مبدأ إسلاميا عظيما، كما يمثل حس بلخير الشعري نحو القضايا التي تمس التضامن العربي، والعمل على كل ما من شأنه أن يقضي على الخلافات الصغيرة قبل أن ينفخ فيها النافخون ويتولاها المتشنجون.

البعد الوجداني

وبادئ ذي بدء فإن ما نشر من شعر بلخير لا يمثل موضوعات الشعر المختلفة فقد برزت موضوعات بروزا واضحا كالمديح والشعر الملحمي. له قصيدتان في شعر الرثاء الجماعي وهما ما سنعرض لهما، وغاب شعر الرثاء الشخصي كما غاب التشبيب بالمرأة أو الهجاء وغير ذلك كالعتاب والحكمة.. والحقيقة أن معظم شعر بلخير قاله بعد عودته من رحلته خارج البلاد السعودية فليس في (وحي الصحراء) سوى ست قصائد ... وهذا الشعر الذي نشره وإن كان يمثل مشاعر معينة ويثير أحداثا ويطرح رؤى إلا أنه في تقديري أقل صدقا وأخف إحساسا من الشعر الوجداني الصافي.

ومما عثرت عليه في هذا الجانب وفهمته مداركي فهما وجدانيا هو مشاعر بلخير نحو الوطن الذي نشأ فيه (مكة المكرمة) ذلك أن مرابع الصبا ومدارج الطفولة لها في النفس منزلة خاصة ومكانة عليا وذكرى لا تنسى، فهذه البيئة التي تربى فيها الشاعر تظل أحداثها ماثلة في ذهنه ويظل تأثيرها مسيطرا عليه مدى الحياة مهما عرف أو شاهد من بيئات أخر. وهاهو شاعرنا عبدالله بلخير بعد أن عاد إلى أرض الوطن من رحلته الاستجمامية واستراحته الذهنية ينشدنا بعض عواطفه نحو هذا الوطن في دفقات شعورية قوية فيقول:

ولست أنسى دخول الركب صاخبة
جموعه فهو في سمعي وإبصاري
إذا تعالى به صوت الحداة زهت
ركائب الركب في زهو وإكبار
تهتز منه شعاب أم القرى طربا
في أمسيات من الذكرى وأسحار
إذا سمعنا بشير الركب سال بنا
لحارة الباب سيل صاخب جار
يهزنا صخب البشرى كأن بنا
مسا من السحر من قيثار سحار
تكاد تسبقنا فيما نخبّ له
أعلام جرول من دوح وأشجار

إن هذه القصيدة التي أثبت منها هذا المقطع تمثل صدق العاطفة وقوة الانفعال، وهي تعد بحق جزءا من سيرة الشاعر الذاتية، وهي سجل تاريخي واجتماعي لدخول الركب إلى مكة عائدا من المدينة .. هل هذا التقليد ما زال موجودا ؟ قطعا .. لا. إن التاريخ ربما أشار إليه في سطر أو سطرين جامدين، أما شاعرنا فقد صوره تصويرا حيا متحركا يكاد ينطق في هذه القصيدة.

عبدالله بلخير أول وزير إعلام في السعودية يلقي إحدى قصائده على الملك سعود - يرحمهما الله -

أما النموذج الثاني لظاهرة الشعر الوجداني عند الشاعر بلخير فيتجلى في انفعاله بفاجعة الطائرة (الترايستار) التي احترقت في مطار الرياض في عام ١٩٨٠م، فقد هاله الموقف فصور الحدث تصويرا مرعبا وكأنه عايشه معايشة التجربة الحقيقية، وذلك هو صدق الشعور وحرارة العاطفة .. فقد جعله الحس الشعري يتخيل كيف كان موقف قائد الطائرة وكيف انكفأ على مقوده في شجاعة نادرة، كما صور كيف كان يستنجد به الركاب، ولكن لا حول له ولا طول، ثم كيف كان مصير زوجته وأولاده ووالده..؟! والواقع أن بلخير قد جعل الطيار محور جيشان عاطفته لأن بلخير كان يحب المواقف الفريدة، ويعجب بكل من يقف موقفا شهما، ومن هنا فقد سيطر عليه هذا الإحساس الفريد المميز، ولعل في ذكر جزء من هذه القصيدة ما يغني عن الشرح، فالقصيدة من روائع بلخير الوجدانية:

هوى من أعالي الجو كالنيزك الذي
هوى يتلظى كالأتون تفتلا
ودمدم فوق الأرض كالرعد مرجفا
طريقا توالى برقه حين أجفلا
كأن شواظا من جحيم هوت به
السماء على حجر اليمامة زلزلا
فحط على ما طار منه ترنحت
جناحاه في مجرى المطار مهرولا
فيا هول ما زاغت به وبهوله الـ
ـبصائر والأبصار أعمى وأذهلا
ففصت بما يجري الحناجر رهبة
فلا تلق إلا معولا أو محسبلا
قد انسدت الأبواب واستعر اللظى
ورف شعاع الموت في الليل مشعلا
ترامـوا عليه لاثنين ببرجه
من الموت يعوي حولهم حين أقبلا
فلا تسمع الأنفاس إلا مراجلا
تفور بآهات الأسى حينما علا

ويأتي بعد فاجعة الطائرة الترايستار فاجعة كبيرة لا تقل هولا عن سابقتها ألا وهي زلزال دمار في الجمهورية اليمنية سنة ١٩٨٢م فانبرى الشاعر بلخير يجسد الموقف بقصيدة من سبعين بيتا نشرها في جريدة الشرق الأوسط بتاريخ ٢ / ١ / ١٩٨٣م يقول مطلعها:

مشى بالعزا (الركن اليماني) باكيا
إلى (اليمن الغالي) ومن فيه ثاويا

وقد صور فيها تصويرا قويا مصاب بني (قحطان) الذي آلم بني (عدنان):

مصاب بني قحطان في عقر دارهم
مصاب بني عدنان دان ونائيا

وانتهى إلى أن الجروح واحدة والمصير واحد والآلام واحدة ويصل به الانفعال الوجداني إلى قمته فيصور الحدث وكأنه واقف يراه رأي العين فيقول:

ومر الفنا في هوله بديارهم
كومضة برق لاح في الأفق ساريا
أفاق عليه الناظرون كما جرى
وقد دمر العالي فأصبح واطيا
وأمست به تلك القرى في سفوحها
وورديانها ربعا من الناس خاليا
تهاوت بها أركانها فسقوفها
معلقة مثل النعوش حوانيا

هذا قليل من كثير هذا الشاعر العملاق الذي نتمنى على أسرته إظهار شعره ونشره كاملاً ليتبوأ مكانته اللائقة به بين شعراء العربية المحدثين. وهي مكانة - بلا شك - ستكون كبيرة ومميزة رحمه الله رحمة واسعة، وجزاه عمّا قدم لأمته خير الجزاء.■